بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 69 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:10\01\2024 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

وصل إلى الآية الثانية والعشرين، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾.

هذه الآية المباركة خاتمة الآيات المرتبطة بالمقطع الذي نبحث عنه. واتضح لدينا إلى الآن أن صدر هذه السورة كان يتكلم عن خلقة الإنسان وما أعطاه الله سبحانه وتعالى من وسائل الهداية، وهذا يمثل المقطع الأول، وبيّن في هذا المقطع أن الإنسان يتنوع إلى نوعين، نوع كفور ونوع شكور، ثم بدأ في مقطع آخر في الحديث عن الشكور الذي أطلق عليه عنوان الأبرار، وبيّن لنا عملهم أنهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ وأنهم يطعمون الطعام إلى آخر ما تقدم.

فكلامنا فعلاً إلى الآن ما زال في هذا المقطع الثاني؛ لأنه فصلّت الآيات وأطنبت الآيات في بيان ما أعدّه الله سبحانه وتعالى له.

هذه الآية هي خاتمة هذا المقطع، فبعد هذه الآية سوف نبدأ بمقطع جديد من السورة، فهذه خاتمة السياق المجموعي لهذا المقطع.

هذه الآية المباركة لها شبيه في سورة الإسراء ﴿وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورا﴾[1] ومن اللطائف أن تمام ما جاء في آية الإسراء ينطبق على المقطع الذي نتكلم عنه.

إذا لاحظنا شأن النزول، وأثبتنا ذلك سابقاً، أن هذا المقطع نزل في أصحاب الكساء عليهم السلام في القضية المعروفة، فحينئذ هؤلاء أرادوا الآخرة كما يتضح من قوله وتعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ اليوم المذكور المقصود به الآخرة، وكما يظهر من قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ

[1] الإسراء: 19

مِسْكيناً وَيَتيماً وَأَسيرا﴾ فليس المقصود على حب الطعام، بل على حب الله سبحانه وتعالى، وكما يظهر من قوله: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّه﴾. فإذاً يصدق على هؤلاء أنهم يريدون الآخرة.

أيضاً هؤلاء سعوا للآخرة، تارة الواحد يريد ويرغب بشيء ولكنه لا يسعى، أي مجرد النية الحسنة التي لا تحرك الجوارح نحو العمل لا تكفي، وما ورد في الخبر (نِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِه)[2] ليس المقصود أن النية المجردة عن العمل خير من العمل الذي فيه نية، كما ذكر في محله.

بل المقصود في مثل هذه الروايات أن العمل الخالي عن النية، المجرد عن نية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فهذا العمل قد لا يكون له قيمة. أما الذي يجعل لهذا العمل قيمة هو ربطه بالباري سبحانه وتعالى التي هي عبارة عن النية، عبارة عن الإخلاص، فالإخلاص هو الذي يجعل الصدقة بتمام الثروة خزفة مكسورة لا قيمة لها إذا كانت خالية عن الإخلاص، والإخلاص هو الذي يجعل التصدق بأقراص من شعير لا قيمة لها في عالم المادة فينزل فيها القرآن يتلى. هذا هو المقصود أن نية المرء خير من عمله، لا أنه أنوي الصالحات ولا أعمل، فليس هذا المقصود حتماً.

فإذاً الآية الشريفة قالت: ﴿وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ﴾ كل واحد منا يحب الآخرة ويريد ذلك، لكن هذه المحبة وهذه الرغبة وهذه الإرادة دعته لكي يسعى لبناء تلك الآخرة ﴿وَسَعى لَها سَعْيَها﴾ فهم ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّه﴾ فقاموا بالخيرات مع النية الخاصة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا أوضح من أن يخفى ﴿فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورا﴾ كما ذكرت هذه الآية التي نبحث عنها ﴿وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾. إذاً معنى هذه الآية المباركة واضح.

فالباري تبارك وتعالى هنا لم يعطهم هذا الجزاء العظيم لمجرد أنه اطلع على نياتهم، بل نياتهم كانت خالصة وعملوا على وفقها، ولذا ورد في عيون أخبار الرضا عليه السلام (قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ ثُمَّ قَالَ لِي [يعني الإمام عليه السلام] اقْرَأْ هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ، فَقَرَأْتُ حَتَّى بَلَغْتُ وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّه مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِلَى قَوْلِه وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً، فَقَالَ: فِيمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ؟ فَقُلْتُ: فِي عَلِيٍّ عليه السلام. قَالَ: فَهَلْ بَلَغَكَ أَنَّ عَلِيّاً عليه السلام قَالَ حِينَ أَطْعَمَ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَالْأَسِيرَ إِنَّما

[2] المحاسن، ج1، ص: 260

نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً عَلَى مَا وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ؟ فَقُلْتُ: لا)[3] أي المؤرخون وأرباب السير الذين نقلوا تلك الحادثة ما نقلوا لنا أن علي عليه السلام قال ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ فهذا لم يقرأ ولم يسمع في رواية أن علياً عليه السلام قال كذا.

تكملة الرواية: (قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَرَفَ سَرِيرَةَ عَلِيٍّ عليه السلام وَنِيَّتَهُ فَأَظْهَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ تَعْرِيفاً لِخَلْقِهِ أَمْرَه)[4]. وهذا تقدم سابقاً وشرحناه.

فإذاً النية أمر مضمر، أما السعي هو الأمر الظاهر، كما أن النية لوحدها لا تكفي، فالسعي بدون نية الإخلاص لوحده لا يكفي.

ومن المباحث الموجودة في هذه الآية ترتبط بأن هذا القول ﴿وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ فمن القائل؟ وأين هو زمان هذا القيل؟

يوجد عند علماء التفسير قولان:

القول الأول: عندما يدخلون إلى الجنة يقال لهم بأمر من الله تعالى هذا القول ﴿إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ وهذا إشارة إلى ما يعيشونه الآن في الجنة، فالمشار إليه هو هذا المكان الذي أنتم فيه، بمجرد أن يدخل الأبرار إلى الجنة ويرون نعيمها فيقال لهم هذه المقولة.

وهذا القول منقول عن ابن عباس، أما من هو الذي يقول ذلك ملك أو غير ملك، وأي ملك هذا إن كان ملكاً وهلما جرا، فهذا لا أثر له في البحث. لكن زمن هذه المقولة عندما يدخل الأبرار إلى الجنة.

القول الثاني: هذا الكلام إخبار من الله تبارك وتعالى الآن، فإنه في هذا المقطع بيّن فعل الأبرار وسعيهم ونيتهم وبيّن ما أعدّه لهم من نعيم، وبعد أن انتهى وختم النعم بـ ﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾ فقال كل هذه الأمور التي ذكرتها لكم ﴿إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾.

ولا يتوقف صحة المعنى على أن يأتي بالفعل وقت التنعم حتى تقال لهم هذه المقولة، وهذا أمر شائع في العرف، لنفترض أب من الآباء يشوّق أولاده من يحفظ جزء عمّ له سوف أعطيه كذا وكذا أموال،

---

[3] عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج2، ص: 191
[4] عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج2، ص: 191

وسوف اشتري كذا وكذا ألعاب، سوف آخذه إلى رحلة عندما ينتهي من ذلك، يقول له كل هذا كان لكم مجازاة على ما تحفظونه من جزء عمّ، وليس من الضروري لكي يصح هذا القول أنهم حفظوا جزء عمّ وانتهوا منه وجاء وقت المجازات، وعندما جاء لهم بكل ما وعدهم به حينئذ قال لهم هذا جزاؤكم.

على كل تقدير، كاحتمال في الآية المباركة كلا الوجهين لا مانع منهما، والتعبير ﴿كانَ﴾ هنا لا يكون مؤيداً للوجه الأول؛ لأن هذا شائع في القرآن الكريم، وقد مرّ في هذه السورة المباركة في أوائلها وبيّنا الوجه في ذلك.

وهنا حتى لو حملنا ﴿كانَ﴾ على الزمان الماضي فهي بلحاظ ما ذكر من النعم، فما ذكر من النعم يكون ماضياً على هذا القول، فتصدق ﴿كانَ﴾ حتى في هذه الدنيا.

فكلا الاحتمالين من الناحية العرفية الظاهرة من الآيات لا مانع منهما، وبالتالي لا يترتب على ذلك أي أثر مهم في تعيين أن زمن هذا القول كان في هذه الدنيا أو سيكون في الجنة.

فالمعنى في هذه الآية في غاية الوضوح.

نقطة أخيرة: هناك لطيفة من اللطائف أشار إليها بعض المفسرين من علماء السنة، عادة الآيات التي تفصّل في جزاء أهل الجنة لا تخلو من ذكر الحور العين، خصوصاً في مثل هذا السياق، حيث إنه ذكر ولدان مخلدون وما شابه ذلك وكأس والشراب وكل هذه الأمور، وإذا راجعنا سورة الواقعة فهو شبيه بما هو في سورة الإنسان، فهناك ذكر الحور العين.

ويذكر نكتة في غاية اللطافة، وهي أن هذا المقطع إذا لا حظنا شأن النزول فيه -وهو يقول على تقدير ثبوته- وأنه نازل في أصحاب الكساء، وفيهم امرأة هي زوجة، وهي من ضمن الأبرار، بل هي على رأسهم، فحفظاً لشأنها لم يذكر الحور العين؛ لأن بين الموعودين بهذه النعم زوجة، وهذه الزوجة على رأس الأبرار، فهذا لا يتناسب مع كون الوعد في هذه الآيات بنعيم في غاية الكرامة والشرف والمقام، فلا يتناسب مع أن نذكر الحور العين.

هذه النكتة ذكرها الآلوسي في روح المعاني، وباعتقادي نكتة لطيفة لا بأس بها.